الفصل الثالث

الإشارات الأمريكية والرفض العربى

- عبد الناصر يعترف: لقد عرفوا كيف يصطادونى.
- الجماهير العربية ترفض التنحى وما ترتب على حرب يونيو
- إسرائيل أنهت الحرب يوم ٨ يونيو.. ثم تلقت إشارة خضراء لاحتلال الجولان
- مستشار الأمن القومى الأمريكى ألح إلى إيبان بالهجوم على سوريا وضمن لإسرائيل عدم تدخل السوفيات عسكريا
- إسرائيل تعتمد على اليأس العربى والزمن.. والانتظار بجوار التليفون

obeikandl.com

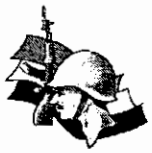

قصة الهجوم على الجولان

طوال أيام ٥ و ٦ و ٧ يونيو كانت عملية «قتل الديك الرومى» فى الشرق الأوسط تتقدم على أرض الواقع كما خطط لها بنجاح كامل. لقد تلقت مصر الضربة المقررة، والأردن فقد الضفة الغربية بعد أن حاولت إسرائيل إغراءه بالابتعاد عن طريق الجنرال أود بول كبير مراقبى الأمم المتحدة حينئذ. وكل من مصر والأردن قبلت وقف إطلاق النار غير المشروط، ولم يكن وقف إطلاق النار يمثل بعد قضية ملحة بالنسبة لسوريا. لأن المناوشات السورية فى الحرب كانت محدودة حتى اليوم الثامن من يونيو، بالإضافة إلى أن مندوب سوريا فى الأمم المتحدة أوضح أن بلاده ستمتثل لوقف النار العام.

مكالمة من البيت الأبيض

وفى مساء الخميس ٨ يونيو تلقى أبا إيبان وزير الخارجية الإسرائيلى مكالمة تليفونية مهمة من البيت الأبيض، كان أبا إيبان موجودا فى نيويورك منذ بدأت مناقشات وقف إطلاق النار، وبعد قبول الأردن وقف إطلاق النار غير المشروط يوم ٧ يونيو، ثم مصر يوم ٨ يونيو، بدا إيبان مستعدا للعودة إلى إسرائيل.

وطبقا لما سجله أبا إيبان نفسه فيما بعد فإن: «مستشارا فى البيت الأبيض أبلغنى بأن مستر جونسون شاهد وسمع خطابى فى مجلس الأمن بشعور من التقدير.. ومضى هذا المسئول ليقول لى: أليس من الغريب أن سوريا، وهى منشأ (هذه) الحرب، ربما ستكون هى الطرف الوحيد الذى سينجو من الإذلال؟ أليس من المثير للتناقض أن دولة مثل الأردن، وهى أقل ارتكابا للذنب، أصبحت تعانى من خسائر ضخمة، بينما سوريا ستظل حرة لكى تبدأ مشهدا مميتا أخر؟».

ويعلق أبا إيبان بقوله: «لقد استنتجت من هذه الملاحظة أن واشنطن الرسمية لن تكون شديدة الأسى أو الحزن فيما لو عانت سوريا من بعض العقوبات.. حتى لا يبدو موقف الأردن محل عقاب، على رغم موقفه المعتدل حتى يونيو ١٩٦٧».

لقد أصبح أبا ايبان الآن– ٨ يونيو– أكثر فهما للغة التعامل الحقيقية مع البيت الأبيض، مما كان عليه فى الأسبوع السابق للحرب، ومن الواضح أن هذا «المستشار فى البيت الأبيض» والذى يملك التعبير عن «واشنطن الرسمية» لم يكن سوى والت روستو.

ولم تكن فكرة ضرب سوريا عسكريا والاستيلاء على مرتفعات الجولان خصوصا بعيدة عن التفكير الإسرائيلى، فالواقع أنها كانت من بين الخطط التى أعدتها هيئة أركان الحرب الإسرائيلية منذ سنة ١٩٦٤ وظلت تراجعها أولا بأول، والآن، فمنذ إخراج سلاح الطيران المصرى من المعركة فى الساعات الأولى من الحرب، أصبحت القيادات العسكرية الإسرائيلية ترى أمامها فرصة ذهبية لتنفيذ خططها المقررة لضرب سوريا، ولكن اللجنة الوزارية المصغرة داخل مجلس الوزراء الإسرائيلى لم توافق لأن أعضاءها كانوا واعين بالضبط لحدود الضوء الأخضر الأمريكى.

وهكذا فإن اللجنة الوزارية برئاسة ليفى اشكول، وفى مقدمتها موشى ديان وزير الدفاع، رفضت بالكامل خطط إسحاق رابين رئيس أركان الحرب وديفيد اليعازر قائد المنطقة الشمالية للاستيلاء على الجولان، وبحلول مساء يوم الخميس ٨ يونيو، أصبحت الحرب منتهية عمليا «بالنسبة لإسرائيل- على حد تعبير إسحاق رابين».

وفى منتصف الليل- ما زلنا يوم الخميس ٨ يونيو- اتصل رابين بديفيد اليعازر لكى يخطره رسميا بقرار اللجنة وبموقف موشى ديان خصوصا، وأنه عليه أن ينسى تماما خطة التحرك للاستيلاء على الجولان، بعدها ذهب إسحاق رابين إلى منزله لأول مرة منذ أربعة أيام لكى يبدأ نوما عميقا حتى الصباح.

الهجوم على الجولان

لكن فيما بين الثانية عشرة مساء الخميس والسادسة عشرة من صباح الجمعة ٩ يونيو، وقع (انقلاب) فى تفكير موشى ديان- إن إسحاق رابين تلقى مكالمة تليفونية فى السابعة من صباح الجمعة، واستيقظ من نومه على صوت عيزرا وايز مان رئيس هيئة العمليات وهو يبلغه بالخبر القنبلة: لقد اتصل ديان بديفيد اليعازر منذ ١٥ دقيقة وأمره بمهاجمة السوريين فورا!

ويقول إسحاق رابين إنه اتجه فورا إلى مقر القيادة حيث: «هناك عرفت بما حدث: إن (موشى ديان) جاء فى السادسة صباحا واجتمع بضباط المخابرات لتقييم الموقف حيث تأكد أولا من التفسخ الكامل للجيش المصرى فى (سيناء).. وقبل الساعة السابعة بقليل، ولأسباب لم أدركها مطلقا، أصدر أوامره إلى ديفيد اليعازر بالهجوم على مرتفعات الجولان، وحينما سمع اليعازر أوامر ديان فى التليفون، كانت تلك الأوامر مفاجئة له تماما بما جعله عمليا يسقط من فوق كرسيه».

وفى البداية تضايق رابين لأن وزير الدفاع تجاوز اختصاصه، حيث رئيس الأركان هو المختص بإصدار أوامر العمليات، لكنه لم يجد هنا وقتا مناسبا للجدل مع ديان حول الاختصاصات، والأكثر مدعاة للضيق بالنسبة لإسحاق رابين هو أن ديان لم يفسر له مطلقا، لا وقتها ولا بعدها سر هذا التحول الكامل فى موقفه ما بين منتصف الليل إلى السادسة صباحا.

لقد كان ديان يريد أن يضمن أولا الانهيار الكامل للجيش المصرى، ومن هنا ظل حتى اللحظة الأخيرة مصمما على أن يتوقف التقدم الإسرائيلى عند مضايق سيناء ولا يمتد إلى شاطئ قناة السويس، ولكن الانهيار جاء كاملا فى القيادات العسكرية المصرية بأسرع مما توقع ديان، فضلا عن أنه بعد صدور قرار الانسحاب الكامل والشامل للجيش المصرى من كل سيناء، وتنفيذه بتلك الطريقة الفوضوية التى سجلتها صور الطائرات الأمريكية السرية دقيقة بدقيقة، جعل الوحدات المصرية تتفكك تماما وتتحول من جيش مقاتل إلى زحام من الجنود الذين يتركون أسلحتهم ويتجهون بسرعة إلى غرب القناة، تنفيذا لأوامر مكتبية صدرت من القيادة العامة بالقاهرة.

ضمان أمريكى بعدم تدخل السوفيات

أما الاعتبار الثانى الذى كان يخشاه ديان فهو احتمال التدخل العسكرى السوفياتى، حيث يرى ديان أن دافع السوفيات هنا بالنسبة لسوريا سيكون أقوى منه بالنسبة لمصر.

والآن وبعد أن تلقى ديان الضوء الأخضر من لجنة التنسيق السرية فى البيت الأبيض الأمريكى، بشكل مباشر ثم بشكل غير مباشر عن طريق أبا ايبان، فإن الأمريكيين أصبحوا يضمنون لديان أن السوفيات لن يتدخلوا.. أو على الأقل لن يتدخلوا بسرعة كافية.

وهكذا نقلت طائرات التجسس والتصوير والمعلومات الأمريكية العاملة من القاعدة السرية المهجورة فى صحراء النقب، عملها على الفور من الجبهة المصرية إلى الجبهة السورية، وأصبحت الأفلام التى تصورها تلك الطائرات أولا بأول، وعمليات التشويش على الاتصالات السورية بمثل ما تعامل من قبل مع الوحدات المصرية.. كتابا مفتوحا.

إذاعة وهمية

وفى البداية أُخذ السوريون على غرة من الهجوم الإسرائيلى الشامل برا وبحرا وجوا، حيث كانوا قد أصبحوا فى حالة (استرخاء) نتيجة قرارات وقف إطلاق النار، لكنهم سرعان ما بدأوا يقاتلون بشراسة طوال يوم الجمعة- ٩ يونيو- ولكن هنا أيضا وقعت أشياء

غريبة تماما، حيث سمع الجنود فى الجبهة مثلا إذاعة دمشق- أو ما حسبوا أنه إذاعة دمشق- تعلن فى الثامنة والنصف من صباح السبت ١٠ يونيو سقوط القنيطرة وهى المدينة الرئيسية للجولان فى أيدى الإسرائيليين- ولم يكن هذا صحيحا بالمرة فى تلك اللحظة، لكن الوحدات المقاتلة فى الجبهة لم تدرك ذلك إلا بعدها بساعتين ونصف الساعة، ولحظتها كان الوقت قد أصبح متأخرا لإنقاذ القنيطرة «إن تشويش الاتصالات» كان يؤدى مهمته بنجاح فى الجبهة السورية بمثل النجاح الذى حققه من قبل فى الجبهة المصرية.

لقد استخدمت موسكو الخط الساخن مع واشنطن، وجرت ضغوط متنوعة فى مجلس الأمن الدولى، ومراوغات متعددة من إسرائيل أحيانا ومن الولايات المتحدة أحيانا أخرى، وفى النهاية، حينما بدأ سريان وقف إطلاق النار أخيرا فى الجبهة السورية فى السادسة والنصف من مساء الجمعة ١٠ يونيو، كانت إسرائيل قد استولت بالفعل على مرتفعات الجولان، وبذلك أصبحت هناك ورقة مساومة أخرى ليتم استخدامها فى الضغط من أجل استكمال العملية الجراحية الكبرى- عملية «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط».

وكان النجاح الكبير فى هذه العملية كلها من نصيب ليندون جونسون، الذى لم يترك خلفه أى دليل قاطع على التواطؤ مع إسرائيل، وبذلك فإنه استوعب تماما دروس ١٩٥٦ بين انجلترا وفرنسا وإسرائيل، وحينما أعلنت الأردن ومصر فى اليوم التالى من الحرب اشتراك طائرات أمريكية وبريطانية فى الغزو الإسرائيلى، كانت الفكرة تفتقر تماما إلى الأدلة الدامغة التى لابد منها فى مثل هذه الحالة، وهو الأمر الذى دفع الملك حسين إلى سحب اتهامه علنا، لكن قضية جونسون كانت مع جمال عبد الناصر ومصر، وليس مع الملك حسين والأردن، وقد بادرت سبع دول عربية إلى قطع علاقاتها الدبلوماسية فورا مع الولايات المتحدة.. ولم يكن جونسون ليستطيع استعادة تلك العلاقات إلا بصدور بيان واضح من جمال عبد الناصر يسحب فيه تهمة التواطؤ- وهو الأمر الذى ظل عبد الناصر يرفضه دائما- فإذا كانت أدلة التواطؤ العسكرى ما تزال- وستظل لسنوات- خافية، فإن أدلة التواطؤ السياسى على الأقل موجودة ودامغة.

خديعة كبرى

وحينما ذهب الملك حسين بعد الحرب بأسبوعين ليقابل الرئيس جونسون فى واشنطن، فإنه وجده متفهما لموقف الأردن، ولكنه وجده أيضا مشحونا بالمرارة- بالمرارة الشديدة على حد تعبير الملك حسين- ضد مصر وجمال عبد الناصر على وجه الخصوص.

وكان هـذا أمـرا ملفتا تماما، ففى الوقـت الراهن على الأقل أصبح لدى جونسـون من الأسباب ما يجعله راضيا تماما عن نفسه وعن سياساته فى الشرق الأوسط- إن مصر لم يتم تحجيمها فقط، ولا تم سحقها عسكريا واحتلال جزء ملموس من أراضها فقط. ولكن الأكثر إذلالا من ذلك أن إسـرائيل بمفردها هى التى تبدو فقط فى الصورة كأداة فى هذا الإذلال، لقد بدا على السـطح أن إسرائيل، وإسرائيل وحدها، هى التى دمرت ثلاثة جيوش عربية واحتلت سيناء وغزة والضفة الغربية والجولان، وهى التى تتكلم الآن كمنتصر، وليس أمام مصر سوى أن تدفع ثمن الهزيمة، بل وأيضا تتحمل نصيبها صاغرة من «إعادة رسم خريطة الشـرق الأوسـط» طبقا للمذكرة السرية التى أصبحت موجودة على مكتب الرئيس جونسون منذ السابع من يونيو.

والآن فان السؤال الملح هو: هل ستمضى تلك العملية فعلا كما هو مخطط لها؟ الواقع أن هذا السؤال وإجاباته المحتملة، كان هو أيضا الشغل الشاغل فى القاهرة منذ الدقيقة الأولى لحرب ١٩٦٧، لقد أدركت مصر أنها وقعت فى خديعة كبرى، وأدرك جمال عبد الناصر أن رأسـه ونظامه مطلوبان من الرئيس جونسـون، وأن ما يجرى ليس أقل من عملية كبرى تسـتهدف «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط»، وهى عملية لم تكن وليدة اللحظة، ولا وليدة أحداث شهر مايو سنة ١٩٦٧ كله، إنها عملية جرى التخطيط لها قبل وقت طويل، وبإحكام ودقة، وفى صمت وتكتم، بحيث إن الأداة وحدها التى تبدو على المسرح، بينما الفاعل الحقيقى لم يترك سوى إشارات وشواهد متفرقة لا تكفى لإثبات سبق الإصرار والترصد منه بطريقة قاطعة.

عرفوا كيف يصطادونى

وربمـا فى نفس اللحظة التى كان الرئيس جونسـون يقرأ فيها تلك المذكرة السـرية من مستشـاره للأمن القومى عن سياسات المستقبل فى الشرق الأوسط، كان الرئيس جمال عبد الناصر يجلس وحيدا فى غرفة فى منزله، واضعا رأسـه بين كفيه، ومتمتما بكلمات قليلة صدرت فى تلك اللحظة منه بإحسـاس غريزى بأكثر مما صدرت بحكم معلومات قاطعة، لقد دخل عليه أحد كبار مسـاعديه فسـمعه وهو يتمتم كما لو كان يكلم نفسه: « لقد عرفوا كيف يصطادونى»!..

وبرغـم الإصـرار الأمريكى فى مجلس الأمن منذ اللحظـة الأولى للحرب على عدم إدانة إسـرائيل ومنع أى قرار يطالبها بالانسـحاب، وبرغم تنكر الرئيـس الامريكى للتعهدات

السابقة بأن تقف الولايات المتحدة ضد أى عدوان فى المنطقة، وفى أى شكل علنى أو سرى، وبرغم تنكره أيضا لتعهده قبل الحرب بـ ١٣ يوما فقط بأن تظل الحدود القائمة بين إسرائيل وجيرانها هى تلك التى رسمتها اتفاقية الهدنة فى سنة ١٩٤٩، وبرغم الانكشاف المفاجئ لوجود سفينة التجسس الأمريكية «ليبرتى» على الحدود البحرية بين مصر وإسرائيل منذ بدء القتال، ولغز قيام إسرائيل فيما بعد بإغراقها ثم إغلاق جونسون لهذا الملف بسرعة.. وبرغم.. وبرغم.. إلا أن الجزء الذى أصبح ماثلا للعيان على أرض الواقع هو فقط ذلك الانهيار السريع الذى وقع فى القوات المسلحة المصرية، وسوء التقدير الفادح فى الحسابات السياسية، وأبرز ما فيه هو التعهد المصرى المسبق لكل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بعدم توجيه الضربة الأولى مطلقا ضد احتمالات الغزو الإسرائيلى.

وأصبح من الطبيعى أن يتحمل الرئيس جمال عبد الناصر المسئولية كلها، ومن ثم فقد أعلن فى التاسع من يونيو ١٩٦٧ قراره المفاجئ بالتنحى عن السلطة فى مصر، فيما يعبر من جانبه لفهم الحقيقة والمغزى من حرب يونيو، وأدرك بأنها الفصل الأول فى عملية كبرى «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط».

إعادة البناء

وبنفس الإحساس الغريزى رفض الشعب المصرى، والعالم العربى كله، تنحى عبد الناصر من السلطة فيما أصبح يعنى رفضا شاملا لأهداف حرب يونيو من أساسها، هكذا بدأت عملية كبرى لإعادة بناء القوات المسلحة فى مصر من تحت الصفر ولإعلان مبدأ «ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة»، ولترجمة مشاعر الغضب والثأر إلى برنامج عملى وشامل للنهوض من جديد.

كانت إسرائيل قد خرجت من حرب يونيو فى صورة الدولة الصغيرة التى انتصرت بمفردها على جيرانها الأقوياء، ولقنتهم جميعا درسا لن ينسوه، تروج له بالصوت والكلمة والصورة حول العالم كله، والآن فان إسرائيل تريد أن تفرض شروط المنتصر لأنه ليس أمام العالم العربى من بديل سوى الإذعان، وأول ما تطلبه إسرائيل هو أن يأتى إليها العرب على مائدة التفاوض المباشر.

وفى الأسبوع الثانى من يونيو خرج أبا إيبان وزير الخارجية الإسرائيلى يعلن: أن ما تريده إسرائيل (الآن) بسيط جدا، وما تريده هو: الأمن والسلام!

وحتى لا يقع أحد ضحية البراءة الظاهرة للكلمات، فان إيبان يستدرك بسرعة قائلا: لكن الأمن والسلام لهما مضمون إقليمى يتعلق بالأرض.

الانتظار بجانب التليفون

أما بالنسبة للرئيس الامريكى ليندون جونسون، فان المكالمة التليفونية التى ظل ينتظرها مع مستشاريه فى واشنطن هى التى تحمل خبر انهيار مصر من الداخل تحت وطأة الهزيمة الكبرى- بانقلاب عسكرى، أو بإفلاس اقتصادى، أو بثورة شعبية، أو بكل هذا معا- فتلك هى المقدمة التى لا يمكن بغيرها المضى فى «إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط». لقد تنكر جونسون لكل تعهداته السابقة وقام بحماية إسرائيل داخل الأمم المتحدة من أى مشروع قرار يدين عدوانها أو يطالبها بالانسحاب.. وبدلا من ذلك خرج يهاجم مصر ويحملها المسئولية الكاملة لما جرى، معتبرا أن القصة كلها بدأت من (حماقة) إغلاق خليج العقبة.

وهكذا لم تكن الهزيمة بالنسبة لمصر عسكرية فقط، ولكنها كانت سياسية أيضا حينما اضطرت بحكم الضرورة إلى قبول وقف غير مشروط لإطلاق النار بعد أن أصرت الولايات المتحدة على عدم إدانة إسرائيل أولا، وعدم مطالبتها بالانسحاب ثانيا، وقد ترى مصر أنها هزمت فى معركة، ولكن جونسون سيظل يرى أنها هزمت فى حرب. ومن ثم يرى أنه الآن أصبحت له الكلمة الخيرة.

ومنذ البداية لاحظ الإسرائيليون أنه «حتى اليوم لم تتفوه الولايات المتحدة بكلمة واحدة ضد أعمالنا العسكرية، وممثلها فى الأمم المتحدة قاوم بشدة ونجاح كل المحاولات السوفيتية للحصول على قرار يدين إسرائيل ويطالب بانسحاب قواتها».

وبالطبع لم يكن متصورا أن تشارك الولايات المتحدة فى إدانة إسرائيل على غزوة شاركت هى فى تخطيطها، أما وقد انتهت الحرب فقد أصبح متصورا أن تتظاهر الدبلوماسية الأمريكية على الأقل باحترام ميثاق الأمم المتحدة الذى كانت هى الهدف الأكبر فى صياغته من البداية.

إن الأمم المتحدة كمنظمة دولية لكى تجسد الأساس الجديد فى مشروعية العلاقات الدولية فيما بعد الحرب العالمية الثانية، وحينما انعقد مؤتمر «الأمم المتحدة» فى ٢٥ إبريل سنة ١٩٤٥ بمدينة سان فرنسسكو الأمريكية لمناقشة مشروع الميثاق الذى ستقوم على أساسه منظمة جديدة باسم «منظمة الأمم المتحدة» كان أساس النقاش هو مذكرة أمريكية تستوعب

الدروس التى كشفت عنها فترة ما بين الحربين العالميتين، وفشل عصبة الأمم المتحدة القديمة فى فرض العقوبات على الدول التى رتبت لنفسها مكاسب إقليمية «حق الفتح والغزو العسكرى»، ولذلك أصبح المبدأ الجوهرى فى ميثاق الأمم المتحدة هو «عدم جواز الاستيلاء على الأرض بالقوة العسكرية». هكذا أصبح أساس العلاقات الدولية الجديدة فى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية هو إصرار المجتمع الدولى على رفض أى اعتراف بحق الغزو والفتح العسكرى، وبالتالى لا يجوز للمعتدى أن يحصل أبدا على ثمار لعدوانه.

أمريكا تصر على المفاوضات

ومع ذلك فطوال مناقشات مجلس الأمن الدولى عقب نشوب حرب يونيو ظل آرثر غولد بيرغ ممثل الولايات المتحدة مصرا رسميا على ضرورة أن يتفاوض العرب أولا مع إسرائيل على ما اسماه: «القضايا السياسية التى غذت نيران الصراع فى المنطقة لعقود عديدة»، وذلك قبل أى تفكير فى مطالبة إسرائيل بالانسحاب إلى خطوط ٤ يونيو١٩٦٧، وحينما يتم تجريد الكلمات من غلافها الدبلوماسى الرقيق فإنها تعنى عملية مكافأة إسرائيل على عدوانها، بل إن غولد بيرغ رفض أصلا استخدام كلمة «عدوان» أو احتلال «واستبعد تماما أى إشارة إلى ضرورة عودة إسرائيل إلى مواقع ما قبل الحرب، وهى سابقة خطيرة يمكن أن تنسف ميثاق الأمم المتحدة من أساسه، وبالتالى تنسف أساس الشرعية الدولية القائمة فى عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وبينما العرب يصرون على مبدأ الانسحاب الإسرائيلى الكامل، كان موقف غولد بيرغ هو التهكم على هذا الإصرار بكلمات ساخرة يقول فيها: إن العرب يريدون إعادة الفيلم إلى الخلف فى «البروجى كنور»!

وفى مقابل ذلك برز الرئيس الفرنسى شارل ديجول كزعيم غربى أعلن من قبل الحرب أن فرنسا ستكون ضد الطرف الذى يبدأ بالعدوان، وحينما بدأت إسرائيل الحرب أعلن ديجول بوضوح إدانة إسرائيل، وكذلك أوقف كل صادرات الأسلحة الفرنسية إليها، بما فى ذلك خمسون طائرة «ميراج» كانت إسرائيل قد سددت ثمنها فعلا.

□□□